﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ٢٨ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ٣٠ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ٣١ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ٣٢﴾ [الصافات: 28 - 32]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من عمومِ إجمالِ التساؤلِ إلى تفصيلِه

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ أنّ الظّالمينَ قد أقبلَ بعضُهم على بعضٍ يَتساءلونَ بينَهم؛ جاءتِ الآياتُ تكشفُ عن حقيقةِ ذلك التَّساؤُلِ[1] الدّائرِ بينَهم، أهو تساؤلٌ واستفهام أم إلقاءُ لومٍ وتعنيفٌ وجدال؟، فهو انتقالٌ من الإجمال إلى التّفصيل، ومن وصفِ عموم التساؤل إلى تفصيل مضمونه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾: (يمن) أصلٌ يدلُّ على البركة والخير[2]، ومنه قولُهُ سُبحانه: ﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩١﴾ [الواقعة: 91]، وهو ضدُّ الشُّؤْمِ، واليمينُ القوَّةُ، وتُطلَقُ على اليدِ اليُمنى، أي: الجارحة[3]، الَّتي بها القوَّةُ والعَوْنُ والدَّفْعُ والإمساكُ وأداءُ الأعمالِ[4]، ومنه إطلاقُ اليمينِ على الحَلِف؛ لأنَّ العربَ يَمُدّونَ أيديَهم اليُمنى للقَسَمِ[5]، كما تُطلَقُ اليمينُ على ضدِّ الشِّمال، واليمين جهة الخير؛ وهو المعنى المُراد في الآية.

2) ﴿سُلۡطَٰنٍۖ﴾: (سلط) أصلٌ يدلُّ على القوَّةِ والقهرِ، والتَّسلُّطُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 330.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يمن)، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 330.
(3) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (يمن).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (يمن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يمن).

هو القهرُ، والسَّلاطةُ هي التَّمكُّنُ مِنَ القَهْر، يُقال: سلَّطتُهُ، فتسلَّطَ، يقولُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: 90][1]، والسَّليطُ الشَّديدُ، يقالُ: حافرٌ سَلِطٌ وسليطٌ؛ أي: شديدٌ، وسُمّيت الحجَّةُ سُلطانًا[2]، وذلك لقوَّةِ تأثيرِها ولتجلّيها، ومعنى السلطان في الآية: القهْر والقوَّة.

3) ﴿طَٰغِينَ﴾: (طغي) أصل يدلُّ على مجاوزةِ الحدِّ في العِصيان، يقولُ تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ﴾ [الحاقة: 11]؛ إذ جاءَ بماءٍ كثيرٍ خارجٍ عن مِقدارِهِ الطَّبيعيِّ، والطُّغيانُ: هو الاعتداءُ في حدودِ الأشياءِ ومَقاديرها[3]، والطّاغيةُ: الجبّارُ العنيدُ، والطّاغوتُ: هو كلُّ مُتعدٍّ وكلُّ معبودٍ مِن دونِ اللّه[4]، فهو تجاوزُ الحدِّ في غِلْظٍ وتَخَطٍّ للحقِّ وعُدوانٍ[5]، ومعنى ﴿طَٰغِينَ﴾ في الآية، أي: مُتجاوزينَ للحقِّ مُعانِدين بجَبروتٍ وخُشونةٍ.

4) ﴿فَحَقَّ﴾: (حقق) أصل يدلُّ على معنى: ثبتَ، ووجبَ، يقولُ سُبحانه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ [القصص: 63]، أي: ثَبَت[6]، وأصلُ الحقِّ: المطابقةُ والموافقة، ويُقالُ للفعلِ والقولِ الواقعِ بحسَبِ ما يجبُ، وقدْرِ ما يجبُ في الوقتِ الَّذي يجبُ، نحوُ: فِعلُكَ حَقٌّ، وقولُك حقٌّ[7]، وحقَّ الشيءُ يَحِقُّ حَقًّا، أي: وجَبَ وُجوبًا، وحَقَّ عَلَيْك أنْ تفعل: وجب عَلَيْك[8]، ومعنى ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ في الآيةِ: وجبَ، وتأكَّدَ، وثبتَ.

5) ﴿لَذَآئِقُونَ﴾: (ذوق) يدلُّ على وجود الطَّعْم بالفَم، وأصلُهُ فيما يقِلُّ تناولُهُ دون ما يَكثُرُ[9]، وذَواقُه ومَذاقُه طيِّب، أي: طَعْمُهُ، يقول ﷻ: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: 22]، وأُطلِقَ في القرآنِ على الإحساسِ بالعَذابِ؛ لأنَّ الإحساسَ بالقليلِ منه شديدٌ، فكيفَ بكثيرِهِ[10]؟ وعلى الإحساسِ بالنِّعمة، كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة والراغب، المفردات: (سلط).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (سلط).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (طغي).
(4) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (طغى).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (طغى).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حقق).
(7) الراغب، المفردات: (حقّ).
(8) الخليل، العين، وابن دريد، تهذيب اللغة: (حق).
(9) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (ذوق).
(10) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (ذوق).

﴿ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ [يونس: 21][1]، ويُطلقُ على اختبارِ الشَّيءِ من جِهَةِ تَطَعُّمِه[2]، ثمَّ يعُمُّ التجريبَ والاختبارَ، يُقال: ذُقتُ فلانًا؛ أي: استَذَقْتُ فلانًا؛ إذا خَبَرْتَهُ، فلَم تَحمَدْ مَخْبَرتَهُ[3]، ومعنى ﴿لَذَآئِقُوا۟﴾؛ أي: نَطعَمُ العذابَ، ونالُهُ لا مَحالةَ.

6) ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾: اختار ابنُ فارس أنَّ أصلَ (الغواية) الغَيايةُ، أي: غِشيانُ الغبرة والظُّلمة، كأنَّ ذا الغيِّ قد غَشيَهُ ما لا يَرى معه سبيلَ حقٍّ[4]، و(غوي) يدلُّ على الانجذابِ إلى ما يؤدّي إلى الفَساد، والانهماكُ في الهَوى والباطل، خلافُ الرَّشَدِ، ومَن غَوي؛ فقد حُجِبَ عن الرَّشَد، يقولُ سُبحانه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم: 2]، وفي الغيِّ انجذابٌ وتأثُّرٌ بالهوى يورِثُ الضَّلال، فهو ضلالٌ معَ تسبُّبٍ[5]، ومعنى ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾: فأيَّدناكُم في ضَلالِكم؛ لأنَّنا كنّا مَحجوبينَ عنِ الرَّشَد، مُنجذبينَ إلى الباطلِ مثلكم[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيان مُلاوَمَة الظالمين بعضهم بعضًا بسبب صَنيعهم في الدنيا

تُبيِّن الآيات الكريمة حال الظّالمين في إقبال بعضهم على بعضفي المُلاومة والتعنيف، فردَّ بعضُهم اللَّومَ على الآخَرين قائلينَ لهم: أنتم السَّببُ في ضلالِنا بتزيينِكم لنا الباطلَ أنَّه الخيرُ والحقُّ، وبتسلُّطِكم علينا، فاتَّبعناكُم، وأجابَهم أولئك بأنَّ التَّبعةَ عليكم أنفسكم دونَنا؛ إذ كنتم قومًا ضالّينَ في حقيقةِ حالِكم، وما ألزمناكُم بشيءٍ ممّا كنتم تعبدونَ، أو تَعتقِدونَ، فقد سبقَ منكم إباءُ الحقِّ وإيثارُ الكُفر، قد تأكَّد علينا لزومُ العذابِ جميعًا، فلا معنى للتَّنصُّلِ من

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ذوق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذوق).
(3) ابن دريد، تهذيب اللغة: (قذ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غوي).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غوي).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 106.

المَسؤوليَّة، وقد كنّا في ضلالةٍ وغيٍّ، فدعوناكم إلى ما نحنُ عليه، ولبَّيتمُ الدَّعوةَ، حتى وجبَ علينا العذابُ والعِقاب، وقامتِ الحُجَّةُ على الطَّرَفين[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ في الآيةِ:

تفصيلٌ بعدَ الإجمالِ في ظِلالِ الأهوال

وقعتِ الآيةُ مفصولةً عمّا قبلها في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا﴾؛ إذ لمّا اشتملتِ الآيةُ السّابقةُ على ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، فكأنَّه قيلَ: عن ماذا؟ فأجيبَ بقوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾[2]، فالآيةُ استئنافٌ بيانيٌّ وقعَ جوابًا عن سؤالٍ نشأ من حكايةِ تساؤُلِهم[3]، والعلاقةُ بينَ الجُملتينِ هي شبهُ كمالِ الاتِّصال، وهو نوعٌ من الإجمالِ الَّذي يَعقبُهُ التَّفصيل، وتكمُنُ بلاغتُهُ في الإغماضِ الَّذي يُثيرُ الاستفهامَ عن مضمونِ هذا التَّساؤُلِ في ظلالِ هَوْلِ العَذابِ المَوعود.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿قَالُوٓاْ﴾:

تمكُّنُ الجدالِ من الظالمين للتَّخلُّص من التَّبعة

عبَّر النَّظمُ بالفعلِ ﴿قَالُوٓاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ المُخاطَبة بينهم، وأنَّه كلامٌ نطَقَ به هؤلاءِ مُجاهِرينَ، ولم يُسِرّوهُ في صدورِهم، ممّا يشيرُ إلى تمكُّنِ الجدالِ بينَهم، ومحاولةِ أيَّةِ وسيلةٍ للخلاصِ من النَّتيجةِ الحتميَّة، وفي إسنادِهِ إلى ضميرِ الجمعِ دلالةٌ على اشتراكِهم في المَوقفِ نفسِه، وهو تحميلُ الآخَرينَ تبعةَ أعمالِهم، وهو ما يشيرُ أيضًا إلى الرَّغبةِ المُلحَّةِ في التَّخلُّص منَ التَّبِعات.

فائدةُ التَّعبيرِ بـ(إنَّ):

تأكيدُ الكلامِ لتوقُّعِ التَّشكيك في كلامهم

استعملَ النَّظمُ الأداةَ (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ﴾

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 8، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 11، والمراغي، تفسير المراغي: 23/ 53، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 80.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 211.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 188.

التي تدلُّ على التَّأكيد، وفي التَّعبيرِ بها إشارةٌ إلى توقُّعِ هؤلاءِ القائلينَ أنْ يُنكِرَ غيرُهم ما يقولونَه لهم، فالأمرُ جلَلٌ، والتَّبِعةُ الَّتي سيُلقيها هؤلاءِ على الفريقِ الآخَرِ ثقيلةٌ، ولا يُستبعَدُ أنْ يُكذِّبوهم في دَعْواهم[1]، ويُسوِّغونَ لأنفُسِهم ما كانوا يفعلونَ؛ لذلك جاءَ التَّأكيدُ بـ(إنَّ).

عَوْدُ الضَّميرِ في ﴿إِنَّكُمْ﴾:

المُجاهرةُ بالخطابِ دلالةٌ على عُنفِ السُّؤال

أوردَ النَّظمُ ضميرَ الجمع المخاطَبِ منصوبًا بـ(إن) ومرفوعًا بـ(كان) في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ﴾، ليعودَ إلى الظّالمينَ المذكورينَ سابقًا، والمقصودُ بهم هنا السّادةُ الَّذين اتَّبعَهم أتباعُهم في الصَّدِّ عن الحقِّ، وفي عَوْدِ الضَّمير إليهم إثباتٌ لظُلمِهم، وتأكيدٌ لسَبْقِهم في مُضادَّة الحقِّ، فأنتم الظّالمونَ ابتداءً، ونحن تبعٌ لكم، أي: كنّا أتباعًا مُتأثِّرينَ بكم، وفي توجيهِ الكلامِ بلفظِ الخِطاب ما يشيرُ إلى عُنفِ المواجَهةِ، الَّتي كانوا لا يُقدِمونَ عليها في الدُّنيا معَ سادتِهم.

دلالةُ فعلِ الكينونةِ الماضي:

مُداومةُ الإضلالِ في الدُّنيا تُظهِرُ مَسؤوليَّةَ الظّالمينَ

عبَّرتِ الآيةُ بلفظِ الكينونةِ الماضي في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ﴾، ويدلُّ ذلك على أنَّ إضلالَهم كانَ في الزَّمن الماضي قبلَ الوقوعِ في العَذاب، أي: في الدُّنيا[2]، وأنَّه لم يكُن حدثًا عابرًا، بل كانَ مُطَّردًا راسِخًا فيهم وديدنًا لهم[3]، وهو ما يبرزُ مَسؤوليَّةَ الظّالمين في إضلالِ أتباعِهم ومُحاولاتهم المُتكرِّرةِ في ذلك.

بلاغةُ حشدِ المؤكِّداتِ:

مُحاولةُ الأتباعِ إلصاقَ المسؤوليَّةِ بالمتبوعينَ

حُشِدَتِ المؤكِّداتُ في قوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾ عن طريق استعمالِ أداةِ التَّوكيد، وفعلِ الكينونةِ الدّالِّ على الاطِّرادِ والرُّسوخِ في الفعلِ، والفعلِ المُضارع المفيدِ للتَّجدُّدِ الاستمراريِّ، وفي ذلك

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 211.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 188.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 211.

دلالةٌ واضحةٌ على المُحاولة المُستميتةِ من الأتباع لإلصاقِ المسؤوليَّةِ بالظّالمين الَّذين أثَّروا فيهم بالضَّلالة، كما يحملُ معنى التَّوبيخ[1].

سرُّ إيثارِ فعلِ الإتيانِ:

قصدُ الإضلالِ ومحاولاتُ إيقاعِهِ دليلُ الضُّلوعِ في المسؤوليَّة

آثرتِ الآيةُ فعلَ الإتيانِ في قوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾؛ لما في الإتيانِ من التَّحرُّكِ من موضعٍ إلى مَوضِع[2]، ففيه تحرُّكٌ وقصدٌ، فقد قصدَ الظّالمون إضلالَ أتباعِهم، ولم يقِفوا عند القصدِ، بل تجاوزوهُ إلى التَّحرُّكِ والمحاولةِ تلوَ المحاولة، بما يدلُّ عليه المضارعُ من التَّجدُّد الاستمراريِّ، وفي كلِّ ذلك إظهارٌ للتَّأثيرِ الكبير للظّالمينَ في أتباعِهم[3]، كما يوحي فعلُ الإتيانِ القدومَ عليهم بكلِّ سهولةٍ ودونَ تكلُّفٍ وصعوبةٍ، إذ كانوا يُقدمونَ عليهم، فيُضلّونهم من دونِ مُكابدةٍ أوْ تعَبٍ.

بلاغة التعبير بصيغة المضارع:

عندَ وقوعِ المصائبِ الماحقةِ تخرجُ المعاذيرُ الواهيةُ

جاء التعبير بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾، الذي يدلّ على التجدّد، وفي ذلك دلالة واضحة في بيان إصرار المتبوعين وعنادهم في إضلال متبوعيهم، حيث إنّهم على الدّوام يأتون الأتباع، وهو ما يتعانق مع دلالة ذكر (كانوا)، كما يحمل معنى التوبيخ[4]؛ ففيه تحميلُهم المسؤوليةَ عن ضلالهم، وما هم بحامليها.

نكتةُ تعديةِ الإتيانِ بـ ﴿عَنِ﴾:

إتيانُ الصَّدِّ أدلُّ على الإضلالِ

تعدّى فعلُ الإتيانِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ بـ﴿عَنِ﴾ مع أنَّه يتعدَّى في الأصلِ بالحرفِ (مِن)، وذلك لدلالةِ ﴿عَنِ﴾ على المُجاوزةِ[5]، ونكتةُ هذه التَّعديةِ هنا هي تضمينُ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 245.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 212.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 104.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 245.
(5) السامرائي، معاني النحو: 3/ 46.

فعلِ الإتيانِ معنى (الصَّدِّ) تضمينًا بيانيًّا[1]، أي: تأتونَنا صادّينَ عنِ اليمينِ والحقِّ والخيرِ، فأفصحَ الحرفُ عن تفسيرِ الإتيانِ بأنَّه إتيانُ صدٍّ ومنعٍ من الإسلام، وهذا مبنيٌّ على تفسيرِ ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾ بالخير والحقِّ؛ إذ جهةُ اليمينِ تُطلَقُ، ويرادُ بها اليُمْنُ والبركةُ والخيرُ والكرمُ والعطاءُ.

فائدةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾ مُعرَّفًا:

طريقُ اللهِ كلُّهُ خيرٌ وسَعادةٌ وبركةٌ

يدلُّ تعريفُ لفظِ ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾ في الآيةِ على يمينٍ مَعهودةٍ، وهي جهةُ الخيرِ والسَّعادة[2]، وفي تعريفِها إشارةٌ إلى الأسَفِ على ما صُدّوا عنه حتَّى ضيَّعوه؛ إذِ اتَّبعوا الظّالمين، وتأثَّروا بهم[3]، كما تُطلَقُ اليمينُ على القوَّةِ والقَهْر، وعلى القَسَم والحِلْف، فيكونُ الآتونَ لهم أقوياءَ مهَرة في الإقناع، معَ قهرٍ لهم على اتِّباعِهم، أوْ يأتونَهم، وقد أقسَموا لهم بالأيمانِ على صِدقِهم مع أنَّهم ضالّون مُضِلّونَ.

دلالةُ الحاليَّةِ في ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾:

ضياعُ الخَيراتِ، والأسفُ على ما فات

عبَّرتِ الآيةُ بشِبْهِ الجُملة: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ الواقعةِ حالًا؛ بناءً على تفسيرِ ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾ بالقوَّة والقَهْرِ أو بالقسمِ والحِلف، أي: تأتوننا حالَ كونِكم قاهِرينَ لنا، أو تأتونَنا مُقسِمينَ حالِفينَ لنا باتِّباعَكم الحقَّ، وأمّا على التَّضمينِ البيانيِّ؛ فإنَّ الجارَّ والمجرورَ متعلِّقانِ بالصُّدودِ، الَّذي تضمَّنَهُ الإتيانُ، أي: صادّينَ لنا عن جهةِ اليمينِ الَّتي هي كنايةٌ عن البركةِ والكرَم، وفي ذِكرِ هذهِ الحالِ إشارةٌ إلى لَوْمِهم إيّاهم، فلم يورثْهُم اتِّباعُهم إلّا خَسارًا، ولم يَجلبوا لهم إلّا سوءَ العذاب[4]، وفيه تأسُّفٌ أيضًا عمّا فاتَهم مِنَ الخيرِ العظيمِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 104.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 104.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 79.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 104.

بلاغةُ الاستعارةِ والكِنايةِ في لفظِ ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾:

شدَّةُ الخيبةِ وثقلُ المَلامةِ مَلمَحان لأهلِ الحَسرةِ والنَّدامة

كُنّيَ بلفظِ ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ الموضوعِ للجِهةِ والقَسَم عن مَعنيَين[1]، وأنسَبُهما أنَّ اليمينَ كنايةٌ عن الخيرِ والبركةِ والكرَم[2]؛ لاشتهارِ استعمالِ اليمينِ فيها عندَ العَرَب[3]، وتفضيلِهم جهةَ اليمينِ على جهةِ اليَسار[4]، حتّى صارَ للخير جهةٌ هي اليمينُ، فيكونُ من ذكرِ الجهةِ وإرادةِ لازمِها، والمرادُ باليمينِ - الَّذي هو الخيرُ هنا - الإسلامُ والإيمانُ باللّه تعالى، فتكون هنالك استعارة؛ لأنَّ صدَّهم لهم عن اليمينِ كان مُتمثِّلًا بالصَّدِّ عن الدّينِ الحقِّ، الَّذي هو الإسلامُ، وفي تسميتِهم للدّين باليمين اعترافٌ منهم بأنَّهم مُنِعوا من اتِّباع الخيرِ والبركةِ، وحُرموا من سببِ النَّجاة يومَ الحساب، أو كُنّيَ بلفظِ ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾ عن لازمِهِ الَّذي هو القوَّةُ والقهرُ.

دلالةُ الإخبارِ بالجُملة ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾:

السُّخط على الظّالمين تأميلٌ في تخفيفِ العذابِ المُهين

أقبل بعضُ الظّالمين على بعض يتساءلون، ويلومونهم بأنَّهم كانوا يأتونَهم عن اليمين، وليسَ الغرضُ من هذا السُّؤالِ الدّالِّ على اللَّومِ والتَّعنيف إعلامَ الظّالمينَ بما فعَلوا، ولكنْ ما يلزمُ عنه من تحميلِهم المسؤوليَّةَ عمّا حاقَ بالجميعِ يومَ القيامة من العذاب، ولتوهُّم منهم أنَّ هذا الإلقاء سيخفِّفُ عنهم شيئًا من العذاب[5]، فصار مرادُهم: فهل أنتم مغنون عنّا شيئًا؟ أو حاملونَ عنّا جزءًا من العذاب؟[6] وفي استعمالِ السُّؤالِ في لازمِهِ إشارةٌ إلى إلجائِهم إلى الاعترافِ بما صَنعوا، فالسُّؤالُ هنا للتَّقرير، ونلحظُ في الجملةِ دلالةً على أنَّهم

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 98.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 40، والطيبي، فتوح الغيب: 13/ 137.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 79.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 330.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 80.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 221.

يدَّعونَ قبولَهم للإيمانِ وشروعَهم فيه، لولا أنَّهم كانوا يأتونَهم صادّينَ لهم عنهُ.

توجيهُ الفصلِ بلفظِ ﴿قَالُواْ﴾:

الجهرُ بنفيِ الإيمانِ سَعْيٌ للتَّبرئةِ مِنَ التُّهَمِ

فُصِلتْ جملةُ: ﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ عمّا سبقَها؛ إذ هو فصلٌ جارٍ على عادةِ القرآنِ في الحوارات، مِن توقُّعِ السّامعِ لموقفِ الطَّرفِ الآخر من هذا الادِّعاء، هل سيؤكِّدونَهُ، ويتحمَّلونَ المسؤوليَّة كاملةً؟ أوْ يتنصَّلونَ منها؟ أو أنَّ أصحابَ الادِّعاءِ مُشتركون في المسؤوليَّة؟ فالجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ، فلذا اختيرَ الفصلُ[1]، كأنَّه قيلَ: بمَ أجابَ هؤلاءِ بعدَ هذا السُّؤالِ التَّقريريِّ واللَّوم على الإضلالِ مع الاتِّهام؟ قيل: ﴿قَالُواْ بَل﴾[2]، فبدلًا مِنَ الإقرارِ بالتُّهمةِ الموجَّهةِ لهم في الكلامِ السّابقِ دَفَعوها، ومنَعوها بالقولِ والكلامِ الصَّريح.

دلالةُ الإضرابِ بـ ﴿بَل﴾:

هولُ مَشهَدِ الحِساب دافعٌ إلى الإنكار والاتِّهام

ابتدأتْ جملةُ الجوابِ بالأداةِ ﴿بَل﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾، وهي للإضرابِ عن الادِّعاءِ المذكورِ[3]، فليسَ الأمرُ، كما ذكرْتُم[4]؛ إذْ لم نَمنعْكُم، ونَصُدَّكُم من الإيمان[5]، ودلَّتْ ﴿بَل﴾ على إبطالِ قولِهم[6]، وأشارتْ إلى إنكارِ إضلالِهم إيّاهم[7]، وهو ما يُشعر بمحاولةِ الظّالمينَ دفْعَ ما لزِقَ بهم من التُّهمة، فأفادَ الحرفُ ﴿بَل﴾ إبطالًا واتِّهامًا معًا، وكما أنَّ الغرضَ من السُّؤالِ الاتِّهامُ والإلجاءُ إلى الاعترافِ مع اللَّوم جاءَ الجوابُ مُشتملًا على الإنكارِ مع الاتِّهامِ لهم بعدَمِ الإيمانِ والتَّصديقِ بالحقِّ من تلقاءِ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 247.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 221.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 105.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 470.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 189.
(6) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 247.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 80.

نفوسِهم، فلو كنتُم مؤمنينَ ومصدِّقينَ حقًّا؛ لما كان لإضلالِنا مِن أثرٍ فيكم.

سرُّ النَّفي بـ﴿لَّمْ﴾:

إباؤُهُم للحقِّ سابِقٌ، وفعلُهم للإيمانِ ماحِقٌ

عبَّرتِ الآيةُ عن نَفْيِ الإيمانِ بـ ﴿لَّمْ﴾ الجازمةِ، في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنَّها تدلُّ على أنَّ الإيمانَ لم يكُن منهم في الماضي على تطاوُلِ المدَّة واستمرارِها[1]، فلَم يحدُثْ منكم الإيمانُ قبلَ تواصُلِنا معكم، حتى يُقالَ: إنّا صَدَدْناكم عن الخيرِ بعدَ أنِ اتَّصفتُم به، فـ"لم يَدخُلِ الإيمانُ قلوبَكم في وقتٍ من الأوقاتِ"[2]، فكيف نتحمَّلُ تَبِعَةَ ذلك عنكُم؟ وبذلك أفادَ النَّفيُ أنَّ عدمَ إيمانِهم كان أصيلًا في نفوسِهم، فلم يكُن منكم إيمانٌ أصلًا، حتى نُتَّهَمَ بإزالتِهِ أوِ التَّشكيكِ فيه أو نفْيِهِ عنكُم.

وجْهُ نفيِ فِعلِ الكَوْنِ:

أبَوا الإيمانَ، فحُرِموا نِعَمَ المنّان

نفتِ الآيةُ الفعلَ ﴿تَكُونُواْ﴾ من قوله: ﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ دون أنْ يقال: (بل لم تؤمنوا)، ووجهُ ذلك هو أنَّ نفيَ الكونِ هنا مُشعِرٌ بأنَّ الإيمانَ لم يكُنْ مِن شأنِهم[3]، فقد تجدَّدَ عدمُ كونِهم مؤمنينَ بدلالةِ صوغِ الفعلِ مُضارعًا، وهو ما يُشيرُ إلى اختيارِهم عدمَ الإيمان، وإبائِهم الحقَّ، وإيثارِهم الكُفرَ[4]، فأعرَضوا عنه مع تمكُّنِهم من الإيمان[5]، أي: إنَّ كفرَهم نابعٌ من ذواتهم، وليس بمُؤثِّرٍ خارجي عنها[6]، فهُم مسؤولونَ عن مآلِهم دون نظرٍ إلى صدِّ الظّالمينَ لهم عن الحقِّ.

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 164.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 80.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 105.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 189.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 40.
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 80.

نكتةُ التّعبيرِ بال﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ دلالةً وصيغةً:

التّطبُّعُ بعدمِ الإيمانِ موصِلٌ إلى الإمعانِ في الغَيِّ

آثرَتِ الآيةُ لفظَ ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ في قوله: ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ لأمرٍ في دلالتِه وفي صيغتِه؛ فأمّا دلالتُهُ؛ فالإيمانُ تصديقٌ وإقرارٌ باطنيٌّ لا يَتحكَّم فيه الآخَرون، وإنْ نطقَ اللِّسانُ بغيره اضطرارًا، فالإقرارُ في الأخير هو قرارٌ شخصيٌّ، يقول ﷻ: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: 106]، فلا يُتصوَّر إذًا في الإيمان إغراءٌ أو صدٌّ أو منعٌ عنهُ، وأمّا عن صوغِ اللَّفظ ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ باسمِ الفاعل مَسبوقًا بالنَّفي؛ فيدلُّ على أنَّهم لم يكونوا عريقينَ في هذا الوصف، فلذلك تابعوا الظّالمينَ فيما أمروهُم به؛ لأنَّه كانَ في طَبْعِهم عدمُ الإيمان[1]، ويدلُّ كلُّ ما ذُكِرَ على عدَمِ تحمُّلِ الظّالمينَ تبعةَ أتباعِهم، وعلى بطلانِ ادِّعاء الأتباع أنَّهم صُدّوا عن الخيرِ، وفي نفيِ الإيمانِ في الجواب قرينةٌ على إرادةِ الاستعارةِ بلفظِ ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾؛ إذ الإيمانُ يمينٌ محضٌ وبركةٌ عظيمةٌ.

وجهُ حذفِ مُتعلَّقِ الإيمانِ:

سلبُ الإيمانِ بالكلّيّةِ أبلغُ في تفنيدِ الاتِّهام

حُذِفَ مُتعلَّقُ الإيمانِ في قوله: ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، مع أنَّه واضحٌ في السّياقِ، وهو الإيمانُ باللهِ واليومِ الآخِرِ لإرادةِ العُموم، ولأنَّ حذفَ المتعلَّقِ يجعلُ الفعلَ المتعدّي بمنزلةِ اللّازم[2]، فالنَّفيُ هنا مُسلَّطٌ على الإيمانِ نفسِه، فهؤلاء ليس من طبعِهم الإيمانُ، وما كان منهم إيمانٌ قطُّ، وهذه الجملةُ أفادتِ الاتِّهامَ بسَلْبِ الإيمان مِن قلوبِهم أوَّلًا، فلم يكُنْ في قُلوبِهم إيمانٌ ولا تصديقٌ أصلًا.

توجيهُ العطفِ بـ(الواو) في ﴿وَمَا كَانَ﴾:

تأكيدُ نفيِ الإيمانِ إبطالٌ لما يدَّعون

عُطِفتْ جملةُ: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍۖ﴾ على جملةِ: ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾؛ لتفيدَ جوابًا آخَرَ على ادِّعاء الأتباعِ صدَّهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 221.

(2) السامرائي، لمسات بيانية، ص: 117.

عن الخيرِ والإيمانِ بالقوَّةِ والقَهْرِ، ففي العطفِ تأكيدٌ لنفيِ صُدورِ الإيمانِ من هؤلاءِ[1]، وفيه إرخاءُ العِنانِ في الجواب؛ حتى يُبطِلوا الادِّعاءَ من أصلِه[2]، فقد نفَوا أيَّ سُلطانٍ لهم على قرارِهم الإيمانَ؛ لأنَّه أمرٌ قلبيٌّ لا نَستطيعُ تغييرَهُ؛ إنْ لامسَ قلوبَكُم.

نكتةُ النَّفي بـ (ما):

مَنْ سُلِبَ السُّلطانَ، مُنِعَ الصَّد عن الإحسان

عبَّرتِ الآيةُ بحرف النَّفي (ما) في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم﴾؛ لنفيِ أيِّ سُلطانٍ للظّالمينَ على هؤلاء، ونكتةُ النَّفي بـ (ما) هي ردُّ الكلامِ السّابقِ[3]، ومقابلةُ الادِّعاءِ السّابقِ بالنَّفي، وجوابُ الإثباتِ بالنَّفي، (فأنتم تدَّعون أنَّنا صَدَدْناكم عنِ الخَير، ولكنْ لم يكُن لنا عليكُم سُلطانٌ، فكيفَ نصدُّهُم عن الخيرِ إذًا؟)، فهي دالَّةٌ على العموم، شاملةٌ لكلِّ سلطان يُجبر الأتباع على ترك الإيمان، سواء أكان سلطانًا ماديًّا، أم معنويًّا، وبه يتأكّد النّفي والردّ على الأتباع.

سرُّ التَّعبيرِ بفعلِ الكَينونةِ الماضي:

نفيُ التَّسلُّطِ تامٌّ ثابتٌ يُناسِبُ بُطلانَ الادِّعاءِ

جاءَ التَّعبيرُ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ بفعلِ الكَوْن الماضي، أي: فما كانَ وما ثبتَ[4]، ويدلُّ ذلك على نفيِ أيِّ ضغطٍ عليهم، فلم يثبت أبدًا أنْ تسلَّطنا عليكم في قرارِكم بالإيمانِ أوِ الكفر، وهو ما يشيرُ إلى مزيدِ تأكيدٍ لإبطالِهم ادِّعاءَ الصَّدِّ عن الخيرِ، ونلحظُ في نفيِ فعلِ الكَوْنِ دلالةً على أنَّ ذلك الأمرَ ليس في المَقدورِ؛ إذ الإيمانُ أمرٌ قلبيٌّ ونظريٌّ لا يمكن المنعُ منه.

معنى اللّام في ﴿لَنَا﴾:

سُلطانُ الظّالمينَ لا يتعلَّقُ بإيمانِ المدَّعين

تدلُّ اللّام في ﴿لَنَا﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ على الاختصاصِ والتَّملُّك، فما كانَ السُّلطانُ مَملوكًا لنا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 221.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 247.
(3) السامرائي، معاني النحو: 4/ 166.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 221.

عليكم، وما اختصَّت بنا من قوَّة؛ فإنَّه لم يكن واقعًا عليكم ولا مُؤثِّرًا فيكم، فنفتِ الآيةُ التَّعلُّقَ بينَ سُلطةِ الظّالمين وإيمانِ هؤلاءِ الأتباعِ أوْ كُفرهم، وهي إشارةٌ إلى محاولةِ التَّبرُّؤِ التّامِّ من أيِّ تأثيرٍ على الأتباع، فلِماذا يتحمَّل الظّالمونَ عن أتباعِهم شيئًا لم يَتَسَبَّبوا فيه؟ وفي نفي السُّلطانِ إقرارٌ بالعَجزِ عن التَّأثير القلبيِّ في الأشخاص؛ إذ جلُّ ما يُؤثِّرُ السّادةُ في الأتباعِ التَّأثيرَ العمليَّ.

عَوْدُ الضَّميرِ في ﴿لَنَا﴾:

المبالغة في تبرئة النفس تعكس شديد الخوف

في شبهِ الجُملةِ ﴿لَنَا﴾ من قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ ضميرٌ يرجِعُ إلى المتكلِّمينَ الَّذين يدفعونَ عن أنفسِهم مَسؤوليَّةَ الصَّدِّ عن الحقِّ والإيمانِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى نفي تعلُّقِ سلطانِ القهْرِ بأنفسِ هؤلاء الظّالمينَ؛ مُبالغةً في تبرئةِ أنفسِهم.

فائدةُ تقديمِ الخبرِ ﴿لَنَا﴾:

تأكيدُ نفي السُّلطان مبالغةٌ في دفعِ دعوى التَّسلُّط

قُدِّمَتْ شبهُ الجملةِ الواقعة خبرًا على اسم كان في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾، وفي تقديمِ الخبرِ في سياقِ النَّفي نفيٌ للخبرِ عن المذكورينَ وإثباتٌ له لغيرهم[1]، وفائدتُهُ هنا هو نفيُ السُّلطانِ عن أنفسِهم خاصَّة، فإنْ كان لغيرنا سلطانٌ عليكم؛ فليسَ لنا، ففيه تعريضٌ بوجود سلطان الهوى والإجرام في قلوب الأتباع، وفي ذلك مزيدُ مُبالغةٍ في دفع دعوى التَّسلُّط.

وأفادَ هذا التَّقديمُ أنَّ سلطانَ الإيمانِ هو قرارٌ شخصيٌّ وأمرٌ راجعٌ إلى النَّفس، فيكون في التَّقديمِ كنايةٌ عن إرادةِ الاتِّهامِ لهم أنفسِهم بعدمِ الرَّغبةِ في الإيمان؛ إذ ليس للإيمانِ من سُلطانٍ إلّا النَّفسُ وحدَها.

دلالة حرف الاستعلاء في ﴿لَنَا عَلَيْكُم﴾:

دلَّ الحرفُ (على) في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم﴾ على

(1) السامرائي، معاني النحو: 1/ 142.

الاستعلاءِ، وهو استعلاءٌ معنويٌّ[1]، أي: إنَّ الظّالمينَ قد نفَوا أيَّ استعلاءٍ على هؤلاءِ الأتباع بسُلطانٍ يُلجِئُهم إلى الكُفرِ بالحقِّ، وفي ذلك إشارةٌ إلى تبرئةِ أنفُسِهم من التَّسلُّطِ الَّذي يناسبُ لفظَ الاستعلاءِ والإجبارِ، فيكونُ مُنسجِمًا مع قولِ المُتَّهمينَ لهم سابِقًا: ﴿تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ المُشعِرِ بالقوَّةِ والقَهْرِ والسُّلطانِ عليهِم.

نفيُ الاستعلاءِ دَحْضٌ للإجبارِ والتَّأثُّر

عَوْدُ الضَّمير في ﴿عَلَيْكُم﴾:

في الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْكُم﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ ضميرٌ يعودُ هنا على أصحابِ الادِّعاء، فنفَوا أيَّ استعلاءٍ لهم عليهم، أو تحكُّم بهم، وفي ذلك إشارةٌ إلى شعور الأتباع بنوعِ تسلُّطٍ، فنفاهُ الظّالمونَ هنا، ومنَ المُلاحظِ كثرةُ الضَّمائرِ التَّخاطُبيَّةِ في السّياقِ الجدليِّ؛ لأنَّ مقامَ الخصومةِ يَستدعي التَّصريحَ بالمُخاطَبينَ بشكلٍ مُباشرٍ خاصَّةً مع الشُّعور بالخَيبةِ الجماعيَّةِ للمُتجادلينَ.

المقامُ يقتضي التَّصريحَ بالمُخاطَبين

وجهُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْكُم﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيْكُم﴾ على متعلَّقه ﴿سُلْطَٰنٍۭ﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾، ووجهُ تقديمِهِ هنا هو نفيُ السُّلطانِ عليه خاصَّةً، فإنْ كان لنا سُلطانٌ؛ فليسَ عليكم، وإنْ كان لغيرنا عليكم سلطانٌ؛ فليس لنا عليكم مِن سُلطانٍ، وفي ذلك أيضًا اهتمامٌ بصاحبِ الدَّعوى وردٌّ لدعواهُ خاصَّةً.

نفيُ السُّلطان عن المُدَّعي خاصَّةً

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله ﴿مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾:

عبَّر النَّظمُ بالحرفِ ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾، وهو حرفٌ زائدٌ يدلُّ على الاستغراقِ والتَّوكيد[2]، فقد أكَّدت ﴿مِّن﴾ الاستغراقيَّةُ النَّفيَ، حتى صار نفيًا عريقًا ونفيًا تامًّا[3]، فلا

النَّفيُ التَّامُّ للسُّلطانِ براءةٌ تامَّةٌ مِنَ الادِّعاء

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/ 42.
(2) السامرائي، معاني النحو: 3/ 71.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 221.

وجودَ لسلطانٍ قطُّ مهما قلَّ وخفَّ، وفي ذلك إشارةٌ إلى تمامِ التَّأكيد على براءتِهم مِنَ المَسؤوليَّة عن كُفر الأتباعِ أوْ صدِّهم عن الخيرِ، فلو لم يَرِدْ حرفُ الاستغراقِ في النَّظم؛ لاحتملَ النَّفيَ الجزئيَّ للسُّلطانِ عليهم، فلا تتِمُّ البراءةُ الكليَّةُ من عدَمِ إيمانِهم.

سرُّ تنكيرِ لفظِ ﴿سُلۡطَٰنٍۖ﴾:

دفعُ قليلِ القهرِ نفيٌ لأكثرِه

نُكِّرَ لفظُ ﴿سُلۡطَٰنٍۖ﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍۖ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّحقيرِ والتَّهوينِ، ونُفيتِ النَّكرةُ تحقيقًا لإرادة العموم، فأيُّ سلطانٍ مهما قلَّ، وحقُر؛ فليسَ لنا عليكم منهُ شيءٌ، وفي ذلك إشارةٌ إلى انتفاءِ القهر والغلَبة، أو الإكراهِ على رَفْضِ الإيمانِ[1].

بلاغة استعمال أسلوب النفي:

تحميل الأتباع مسؤولية الكفر ديدنُ الأسياد

استعمل الظالمون أسلوب النفي في قولهم: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍۖ﴾، لتحميل الأتباع المسؤولية كاملةً؛ كأنّهم قالوا: إنّكم فعلتم ما فعلتم بأنفسكم، ولم نفعل بكم شيئًا[2]، فما لنا مِن قوَّةٍ نقهرُكم بها على مُتابعتِنا[3]، أوْ نَسلبُكم بها تَمكُّنَكم واختيارَكم[4]، وهو يشيرُ إلى دفع ادِّعاءِ الأتباع وإبطالِهِ بإبطال أيِّ سلطانٍ عليهم.

وجهُ العطفِ بحرف الإضرابِ ﴿بَلۡ﴾:

الطُّغيانُ علَّةُ الزَّيغ وسبيلُ الكُفران

عُطِفتْ جملةُ: ﴿كُنتُمۡ قَوۡمًا طَٰغِينَ﴾ على جملة: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍۖ﴾ بحرفِ ﴿بَلۡ﴾، الدّالِّ على الإضرابِ الانتقاليِّ[5]؛ لتأكيدِ المعنى السّابق[6]، فلمّا انتفى أيُّ سلطانٍ عليهم؛ فقد ثبتَ أنَّ الاتِّباع كان اختيارًا، فإنَّما تَبِعْتمونا باختيارِكم[7]، فقد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 105.
(2) السمعاني، تفسير السمعاني: 4/ 397.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 39.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 40.
(5) السامرائي، معاني النحو: 3/ 223.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 105.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 221.

كنتم قومًا طاغينَ، فصرَّحتِ الجملةُ المُبتدئةُ بـ﴿بَلْ﴾، بما ألمحتْ به الجملةُ التي سبقَتْها، فقد نَفَوا عنهم الإيمانَ الاختياريَّ أوَّلًا، وسَلَبوا عن أنفسِهم التَّأثيرَ في كُفرهم ثانيًا، وعادوا ليثبتوا لهم الطُّغيانَ ومُجاوزةَ الحقِّ في كُفرِهم باللّه، فلا فرقَ بينَنا أصلًا؛ لأنَّ اتِّهامَهم أفادَ طُغيانَ المُضلّينَ الَّذين لم يَكتفوا بضلالِهم، بل قهروا غيرَهم عليه، فصرَّحوا بأنَّهم مُشتركونَ في الطُّغيان.

دلالةُ فعلِ الكينونةِ الماضي:

تأصُّلُ الطُّغيانِ صادٌّ عن الإيمانِ والإحسان

عبَّرتِ الآيةُ بلفظِ ﴿كُنتُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا الطُّغيانَ سابقٌ فيهم متأصِّلٌ كالجِبِلَّة والطَّبعِ فيهم[1]، وفي ذلك إشارةٌ إلى دعمِ مَوقفِ الظّالمين من أتباعِهم، فالطُّغيانُ سابقٌ لإغراءِ السّادة.

وجهُ إيرادِ ﴿قَوْمًا﴾ نكرةً:

طغيانٌ كالطَّبعِ لا يتخلَّف، ولا يُستغرَب

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿قَوْمًا﴾ في قوله: ﴿كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الطُّغيانَ أصيلٌ فيهم مُصاحِبٌ لقوميَّتِهم، كأنَّه مُقوِّمٌ من مقوِّماتِها، وما كان سجيَّةً وشأنًا من شؤونِهم لا يتخلَّف[2]، وفي تنكيرِ لفظ ﴿قَوْمًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الطُّغيان وصفٌ لهم كوصفِ الأقوام الطّاغية، فالطُّغيانُ إذًا لا يُستغربُ منهم، ومَن كان كذلك؛ فلا حاجةَ لسلطانٍ يَقهَرُهُم عليه.

دلالةُ اسمِ الفاعل ﴿طَاغِينَ﴾:

الصَّدُّ عن الحقِّ اختيارٌ منهم راسخٌ كالطَّبع

صيغ لفظُ ﴿طَاغِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ اسمَ فاعلٍ؛ للدَّلالةِ على رُسوخِ وصفِ الطُّغيان فيهم، فليس بالأمرِ العابرِ ولا المُؤقَّتِ، لكنَّه دائمٌ ثابتٌ، ممّا يشيرُ إلى أنَّه يقعُ باختيارهم، فقد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 221.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 105.

كُنتُم قَومًا مُختارينَ للطُّغيان[1]، ويشير أيضًا إلى أنَّ عدمَ إيمانِهم بالحقِّ أمرٌ لا يُحتاجُ فيه إلى كبيرِ جُهْدٍ أو إلزامٍ وسلطانٍ[2]، فالعلَّةُ في عدمِ إيمانِكم ليستْ خارجيَّةً عنكم، وإنَّما وصفٌ قام بكم، ألا وهو الطُّغيانُ.

وجهُ العطفِ بـ (الفاء):

عُطِفَتِ الجملةُ الواردة في قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ على ما سبقَها بـ (الفاء)، وهو عطفُ تفريعٍ على صريحِ ما تقدَّم[3]، دالَّةٌ على التَّسبُّب؛ إذ لمّا تأكَّد أنَّ المتخاصمينَ طاغونَ بطَبْعِهم، وأنَّهم صدّوا عن الحقِّ جميعًا باختيارهم؛ فرَّع عليه اعترافَهم جميعًا باستحقاقِ العَذاب[4]، وأفادَ العطفُ بـ(الفاء) أنَّ الحُكمَ يتأخَّرُ عن علَّتِه؛ إذ عدمُ الإيمان وثبوتُ الطُّغيان أدَّيا إلى تلك النَّتيجةِ، وهي استحقاقُ العَذابِ.

عـدالـةُ الـحـقِّ توجبُ الاعـتـرافَ بـاسـتـحـقـاقِ العقاب

سرُّ التَّعبيرِ بفعلِ (حقَّ) ماضيًا:

عبَّرتِ الآيةُ بفعلِ (حقَّ) في قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾، ويدلُّ على الثُّبوتِ واللُّزوم، أي: إنَّ العذابَ قد تأكَّدَ عليهم[5]، وفي صوغِهِ بصيغةِ الماضي دلالةٌ على ثبوتِهِ كأنَّه واقعٌ - لا محالةَ - فهو أمرٌ ثابتٌ مقرَّرٌ عند ربِّ العالمين، وفي ذلك إشارةٌ إلى عدم جَدوى أيِّ جهد لدفعِ شيءٍ ثابتٍ، ويفيدُ فعلُ (حقَّ) أنَّ ذلك الحكمَ فيهم قديمٌ أزليٌّ، لكنَّه لم يتقرَّر عليهم إلّا بعد أنْ طغَوا، وآثروا الكفرَ على الإيمان، فَلَزِمَهُم، أي: تعلَّقَ بهم تعلُّقَ لزومٍ بعدَ أنْ كان حُكمًا ثابتًا لكمالِ علمِهِ بأحوالِهم المُستقبَلةِ.

تحقُّقُ العذابِ وعدٌ ولنْ يُخلِفَ اللهُ وعدَهُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 40.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 221 - 222.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 80.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 105.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 105.

معنى (على):

الإلماحُ إلى إطباقِ العذابِ دليلٌ على شِدَّتِه

تعدَّى الفعلُ (حقّ) بالحرف (على) في قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾؛ للدَّلالةِ على الاستعلاءِ المعنويِّ، أي: إنَّ العذابَ لازمٌ[1] وواقعٌ عليهم، كأنَّه ينزلُ عليهم، ويَعلوهُم، وفي ذلك إشارةٌ إلى قطعِ الرَّجاء في الانفلاتِ منه، فإنَّه واقعٌ - لا محالةَ - لا ينفلتُ منه أحدٌ منهم، فضلًا عن الدَّلالةِ على شدَّتِه، والإلماحِ إلى إطباقِهِ عليهم.

عَوْدُ الضَّميرِ في ﴿عَلَيْنَا﴾:

الاعترافُ بالاستحقاقِ دعوةٌ لاستسلامِ لحُكمِ الله

جرَّ الحرفُ (على) ضميرَ الجمعِ للمتكلِّمينَ في قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ العائدَ إلى المُتخاصِمينَ جميعًا[2]؛ إذ إنَّهم بينَ راغبٍ عن الحقِّ وصادٍّ عن الخير، فكان منهم الكفرُ الَّذي أورثَهم العذابَ؛ لذلك جاءتِ الآيةُ اعترافًا من المُتخاصِمينَ وخُضوعًا واستسلامًا للحُكمِ الثّابتِ فيهم.

سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْنَا﴾:

الإقرارُ باستحقاقِ العذابِ اعترافٌ بالطُّغيانِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيْنَا﴾ على الفاعلِ في قولِهِ: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾؛ ليدُلَّ على الاهتمام بمَنْ حقَّ عليه القولُ، وهم المُتخاصِمونَ، وفي ذلك إشارةٌ إلى إقرارِهم باستحقاقِهم العذابَ لما فيهم من الطُّغيانِ والكُفْر[3].

بلاغة الالتفات وغرضه:

الاعترافُ بظلمِ الجميعِ والرضوخ لحكمِ الجليل

التفت النظم من الخطاب في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ﴾ وما قبله من خطاب الأتباع، إلى التكلم في قوله ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾، وتكمن بلاغة الالتفات في التنصيص على المعني بذوق العذاب، وأنّهم المتخاصمون جميعًا[4]، وهو أشبه بالاعتراف الصريح وتقبّل الوضع.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 222.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 222.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 80.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 105.

نكتةُ إيثارِ (القول) في الآية:

إرادةُ الله ماضيةٌ، وعقوبةُ مَن حادَ عن سبيلِهِ ساريةٌ

آثرتِ الآيةُ لفظَ ﴿قَوْلُ﴾ في قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾؛ لدلالتِهِ على إرادةِ اللّه ﷻ[1]، فالقولُ يتضمَّنُ إرادةَ اللّه الأزليَّة الَّتي تقضي بمُعاقبةِ مَن حادَ عن سبيل اللّه، وعبَّر عنها سُبحانه في آياتٍ كثيرةٍ، منها قولُهُ تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: 85][2]، وهنالك مجازٌ مُرسَلٌ في القولِ المُنبئِ عن الإرادةِ، والعلاقةُ بينهما التَّعبيرُ بالمسبَّبِ وإرادةِ السَّبب، كما أنَّ في إسناد الحقِّ إلى القولِ مجازًا عقليًّا علاقتُهُ مصدريَّةٌ، وفي المجازينِ تصويرٌ لعظمةِ الإرادةِ الَّتي لا تتخلَّف عن عُقوبةِ الظّالمين.

توجيهُ إضافةِ القولِ إلى الرَّبِّ:

خالقُ الكونِ ومُدبِّرُه لن ينتفيَ عن الخلْقِ عَدْلُه

أُضيفَ (القول) إلى لفظ (الرَّبِّ) في قولِهِ: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾، وفي هذه الإضافةِ دلالةٌ على استحضارِ مَعاني المُلك في ربِّ العالَمين، فهو الخالقُ المُبدِئُ المُدبِّر، فمِن شأنِه سُبحانَهُ أنْ يُجازيَ عبيدَهُ مُطيعَهم ومُسيئَهُم بعَدْلِهِ، والإقرارِ والاستسلامِ لحُكم اللّه ﷻ[3]، واستحضارِ معاني الإحسانِ، فهو قولُ الَّذي قابَلْنا إحسانَهُ إلينا وتربيتَهُ لنا بالكُفران[4]، وهو ما يشيرُ إلى شُعورهم بالحياءِ والنَّدم.

وجهُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿لَذَآئِقُونَ﴾:

من صفاتِ العذابِ لزومُهُ وشدَّةُ الشُّعورِ بِهِ

عبَّرت الآيةُ بلفظِ ﴿لَذَآئِقُونَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾، ووجهُ التَّعبير بذلك هو أنَّ الذَّوقَ هو أشدُّ الحواسِّ تأثُّرًا، فذِكْرُ (الذَّوق) إشارةٌ إلى عظيمِ الألم الذي سيشعرونَ به، ففي ذلك تنبيهٌ على لزومِ العذابِ لهم، يَبدأُ بالذَّوقِ، والذَّوقُ يُنبئُ عمّا هو أكبرُ منه، كما أنَّ في اللَّفظِ استعارةً مكنيَّةً؛ إذ شُبِّهَ العذابُ بطعامٍ يُذاقُ، ويُؤكَلُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 349.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 140.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 53.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 222.

منه، ثمَّ حُذِفَ، وبقي من لوازمه (ذائِقونَ)، وفيه شيءٌ من التَّهكُّم بهم والاستخفافِ بمكانتِهم.

دلالةُ اسمِ الفاعلِ المجموعِ:

جميعُ الظّالمينَ وأتباعِهم مُعذَّبون

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿لَذَآئِقُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ المَجموعِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذَوْقَ العذابِ لازمٌ لهم - لا محالةَ - وأنَّهُ أمرٌ ثابتٌ لا رجعةَ فيه؛ لِما علِمَهُ تعالى من حالِهم واستحقاقِهم للعقوبةِ[1]، وعلى لزومِ العذابِ للجميعِ دونَ استثناءٍ[2]، وللإشعارِ بالاشتراكِ جميعًا في العذابِ دونَ تمييزٍ بينَ الظّالمينَ وأتباعِهم ما دام الجميعُ قد طغَى، وكفَرَ.

سرُّ حذفِ مُتعلَّقِ ﴿لَذَآئِقُونَ﴾:

في إضمارِ المُذاقِ تهويلٌ ومَزيدُ تَفزيعٍ

حُذِفَ متعلَّقُ ﴿لَذَآئِقُونَ﴾ من قوله: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾، وهو معلومٌ عند الجميع، وقد ذُكِرَ في السّياق في قولِه ﷻ: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: 23][3]، ولعلَّ السِّرَّ في حذفِه هو أنَّ في ذكرِه الفزعَ وكتْمَ أنفاسِ الحَسرة؛ لذلك سكتوا عن ذِكْرِه.

بلاغةُ حَشْدِ المؤكِّداتِ:

الإقرارُ بالعذابِ إبطالٌ للَّوْمِ وتسليمٌ لِلهَوْلِ

حَشَدَتِ الآيةُ مؤكِّداتٍ عديدةً في قوله: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾، وهي (إنَّ) واللّام والجملةُ الاسميَّة، وفي ذلك دلالةٌ واضحةٌ على صُعوبةِ تقبُّلِ النَّتيجةِ، وهي العَذاب، لذلك تضافرتِ المؤكِّدات؛ ليتحقَّقَ أنَّ العذابَ أمرٌ مقضيٌّ لا محيصَ عنه، وأنَّه قد ترتَّب على أسبابِه بما اختاره كلُّ واحدٍ من المتخاصمينَ، وإشارةٌ إلى إبطالِ اللَّوْمِ بينهم وتوجيهِه إلى النَّفس[4].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 40.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 140.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 105.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 80، والمراغي، تفسير المراغي: 23/ 53.

بلاغةُ الالتفاتِ:

المُتكلِّمُ أخصُّ من المخاطَب الحاضِر

عبَّر النَّظمُ في قوله: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ بأسلوبِ الالتفاتِ من المُخاطَبِ إلى المُتكلِّم، وتكمنُ بلاغةُ ذلك في التَّنصيصِ على المعنيِّ بذوقِ العَذابِ، وأنَّهم المتخاصِمونَ جميعًا[1]، وهو أشبهُ بالاعترافِ الصَّريحِ والإقرارِ المُباشِر.

بلاغةُ الاعتراضِ:

التَّخفيفُ من العِتاب وتقبُّلُ التَّسويغِ بالغواية

يمكنُ اعتبارُ جملةِ: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ مُعترضةً بينَ تأكيدِ طُغيانِ الأتباعِ وتأكيدِ السّادةِ أنَّهم أغوَوا أتباعَهُم[2]، وتكمنُ بلاغةُ هذا الاعتراضِ في التَّوطئةِ لذكرِ تأثيرِ السّادةِ في أتباعِهم؛ فإذا تأكَّد أنَّ الجميعَ في العذاب، وأنَّه قد حقَّ عليهم بما كان منهم من طُغيانٍ وعدمِ إيمان، فلا جَدوى من العتابِ واللَّوم، فإذا خفَّ اللَّومُ؛ تقدَّمَ السّادةُ بذكرِ تأثيرهم في الأتباعِ بغيرِ ما تصوَّروه.

وجهُ العطفِ بالفاءِ في ﴿فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ﴾:

تفريعُ الإغواءِ على الكُفرِ وسَبْقِ الطُّغيان

عطفَ النَّظمُ قوله: ﴿فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ﴾ على جملةِ: ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ﴾ بحرفِ (الفاء)، وهو عطفُ تفريعٍ على مضمونِ ردِّ الظّالمينَ على أتباعِهم؛ ابتداءً من قولهم: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾، أي: فإذا لم تكونوا مؤمنينَ، ولم يكن لنا عليكُم سلطانٌ في اختياركم الكفرَ، وأنَّكم كنتُم طاغينَ؛ فما كان منّا إلّا الإغواءُ[3].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ (أغوينا) مادَّةً وصيغةً:

عَمَلُ الظّالمينَ التَّزيينُ زيادةً في غوايةِ المتَّبعين

عبَّر النَّظمُ بلفظِ (أغوينا) في قوله: ﴿فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ﴾ لأمرٍ في مادَّتِه وفي صيغتِه؛ فأمّا مادَّةُ (أغوى)؛ فتدلُّ على الانجذابِ إلى شيءٍ معَ تغشٍّ وفسادٍ[4]، أي: إنَّ الباطلَ صارَ مزيَّنًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 105.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 106.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 106.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غوي).

للأتباعِ الَّذين قبلوه، وابتَغوه[1]، وأمّا صيغةُ (أغوى)؛ فهي تدلُّ على تعديةِ الفعلِ اللّازم بالهمزةِ، أي: إنَّ الظّالمينَ زادوا الأتباعَ إغواءً، وأيَّدوهم في غوايتهم[2]، وكان عملُ الظّالمينَ هو التَّزيينَ والتَّسويلَ حتى يَزيدوا للأتباع الغواية.

وجهُ التَّعبيرِ بفعلِ الكونِ الماضي:

مَـــن يـــألَـــفُ الغواية يَتطبَّع بها أفعالًا

جاءَ التَّعبيرُ في قولِه: ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ بفعلِ الكونِ الماضي، ووجهُ التَّعبيرِ به هنا هو الدَّلالةُ على تمكُّنِ الغَواية في نفوسِهم[3]، فقد ألِفوا الغوايةَ، وأُشربوها زمنًا حتى كانوا غاوينَ.

عودُ الضَّمير في ﴿إِنَّا﴾، و﴿كُنَّا﴾:

اعترافُ الغاوين مصيرٌ حتميٌّ لا اختيارٌ

عبَّر النَّظمُ بضميرِ الجمعِ للمتكلِّم في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ العائدِ إلى المُخاطَبينَ بقوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾، وفي عودِ الضَّمير إلى هؤلاء ردٌّ إلى أصلِ الادِّعاء، فهؤلاءِ الظّالمون قد أقرّوا بأنَّهم كانوا غاوينَ، لذلك زيَّنوا للأتباعِ الغواية الَّتي استحبّوها، فأبطلوا بذلك التَّسلُّطَ عليهم، وأثبتوا التَّزيينَ والدُّعاءَ إلى الغواية، ليظهرَ المُتسبِّبُ مِنَ المُعين.

تكرُّرُ ضميرِ الجمعِ المتكلِّم:

التَّأثيرُ في الأتباعِ مُمتدٌّ إلى نارِ الجحيم

تكرَّرَ في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ ضميرُ الجمع، ويدلُّ ذلك على إشعار الظّالمينَ أتباعَهم بعظمتِهم، وهو نوعُ تأثيرٍ وإسكات، فإذا كان الجميعُ سواءً في الطُّغيان وفي استحقاقِ العذاب، إلّا أنَّ ثمَّةَ فرقًا بين السّادة والأتباع، فالسّادة هم السّابقونَ في الغَواية والمُؤثِّرون بها، ففي ذكرِ (نا) الجمع تأثيرٌ في الأتباعِ، ولو كانوا في عذابِ الجحيم.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 41.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 106.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 106.

دلالةُ اسمِ الفاعل ﴿غَٰوِينَ﴾:

غَـوايـةُ الظّالمينَ مُـتـأصِّـلـةٌ في أنفسِهم

عبَّر النَّظمُ بلفظِ اسمِ الفاعل في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ الغوايةَ طبعٌ فيهم[1]، فهي متأصِّلةٌ فيهم وديدَنُهم في أنفُسِهم[2]، وما كان بالطَّبع؛ فإنَّه يظهرُ في أصحابِهِ - لا محالةَ - ويُؤثِّر فيمَن حولهم، وهو إغواءُ الأتباع.

بلاغةُ حشدِ المؤكِّدات:

تأصُّلُ الغَواية سببُ كلِّ غَشاوة

ضمَّتْ جملةُ: ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ مجموعةً من المؤكِّدات، وهي: (إنَّ)، وفعلُ الكينونة، والجملةُ الاسميَّة، وتظاهرُ التَّوكيداتِ هنا يشيرُ إلى أنَّ الظّالمينَ إنَّما يُسوِّغون إغواءَهم لأتباعِهم بأنَّ غوايتَهم هي الَّتي دفعَتْهم لإغواءِ الأتباع، فالغَواية فيهم متأصِّلةٌ، وما هم إلّا مُنجذبونَ للضَّلال مُتأثِّرون به، مُنقادونَ له، مغشيٌّ على أبصارِهم وقلوبِهم بهِ.

بلاغةُ التَّعليل في ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾:

تسويغُ الإغـواءِ إبـعـادٌ للعَتَبِ عليهم

جاءتْ جملةُ: ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ مُستأنفةً عن جملةِ: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾، وهو استئنافُ تعليلٍ[3]؛ إذ علَّلوا صدورَ الإغواءِ منهم بأنَّهم كانوا غاوينَ[4]، وتكمُنُ بلاغةُ التَّعليل هنا في تسويغِ الإغواءِ، فالغواية تقتضي التَّأثيرَ في الآخَرين؛ ليكونوا غاوينَ مثلَهم[5]، ولم تكنْ منهم إلّا رغبتُهم أنْ يكونَ أتباعُهم مثلَهم[6]، ومن بلاغةِ التَّعليل أيضًا إبعادُ العتَبِ عنهم، فما كان منهم إلّا التَّزيينُ[7]، فهم قد أقرّوا بأنَّهم تسبَّبوا في إغوائِهم، لكن لا بطريقِ القَهْرِ والغَلَبة[8].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 222.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 330.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 106.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 80.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 41.
(6) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 53.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 189.
(8) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 449.

براعةُ الجوابِ في جدالِ الظّالمينَ مع الأتباعِ:

سُموُّ منزلةِ السّادةِ في أتباعِهم مظنَّة قوّةِ التّأثير

إنَّ تتبُّعَ ما وردَ في جوابِ الظّالمينَ لأتباعهم يوقفُ على نُكَتٍ بلاغيَّةٍ رائقةٍ في حُسْنِ التَّخلُّص من الاتِّهام بالإضلالِ، فلم يَهجموا على أتباعِهم بالجوابِ بالنَّفي، لكن ابتدؤوا جوابَهم بأنْ ردّوهم إلى أصلِ حالِهم، وهو عدمُ الإيمان، وهو ما يدفعُ إلى العَودة للنَّفس بالمَلامة، ثمَّ ثنّوا بنفْيِ أيِّ قهرٍ وتسلُّطٍ عليهم في اتِّباعِ الباطل، وزادوا للأتباع غَمْرًا في تحمُّلِ المَلامة بأنَّ الطُّغيانَ أصيلٌ فيهم، فصاروا طغاةً بعدَ عدمِ الإيمان، ثمَّ جاءَ ذِكرُ الإغواءِ للطّاغين تتمَّةً، وأنَّ السّادة لم يكن من قَصدِهم إلا أنْ يكونَ أتباعُهُم مثلَهم غاوين، فقد اختاروا لهم ما اختاروه لأنفُسِهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الطُّغيان والعُتوّ والاستبداد والاضطهاد:

الاستبدادُ عتوٌّ على رأي الآخَرين، والاضطهادُ طغيانٌ على حقوقِ الآخَرين

يجتمعُ (الطُّغيانُ والعتوُّ) في مُجاوزةِ الحدِّ، ويَفترقانِ في أنَّ الطُّغيانَ تجاوُزُ الحدِّ بمكروهٍ، ومنهُ قوله تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف: 80][1]، في حين يدلُّ العتوُّ على شدَّةِ مُخالفةٍ وعِنادٍ[2]، وقريبٌ من العتوِّ (الاستبدادُ)، وهو التَّفرُّدُ بالرَّأي والاستقلالِ بالأمرِ دونَ الآخَرين[3]، وهو نوعٌ من أنواعِ العتوِّ والعِناد، وقريبٌ من الطُّغيانِ (الاضطهادُ)، وهو التَّعدّي الشَّديدُ على كلِّ حقٍّ للآخَرين، وهو نوعٌ من أنواعِ الطُّغيان، ولأجل ذلك آثرتِ الآيةُ لفظَ ﴿طَٰغِينَ﴾؛ لدلالتِها على أصلِ الاعتداءِ على الحقِّ، فيكون أعمَّ مطلقًا من غيرِه.

الغواية والزَّيغ والضَّلال:

تجتمعُ (الغَوايةُ والزَّيغُ) في أنَّهما ضلالٌ عن الجادَّة، ويفترقُ

(1) بيات، معجم الفروق، ص: 337.
(2) بيات، معجم الفروق، ص: 337، والراغب، المفردات: (عتو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بدد).

الـضَّـلالُ خـطأُ السَّبيل، والزَّيغُ ضـــــلالٌ عـن الاسـتـقـامـةِ، والغوايةُ عَمايةٌ وفَسادٌ

(الزَّيغُ) عنِ الضَّلال في المَيلِ إلى المَكروه، فالزَّيغُ لا يكونُ إلّا ميلًا عن الحقِّ[1] وعنِ الاستقامةِ[2]، وإذا كانَ (الضَّلالُ) هو خطأ السَّبيلِ عمومًا؛ فالغوايةُ: هي انهماكٌ في الضَّلال حتى صارَ عَمْدًا، وعمَّتْ صاحبَه العمايةُ، وقصدًا سيِّئًا عن عَمْدٍ وإصرار[3]، حتى صارَ الغيُّ فَسادًا[4]، ولأجل هذه الفروقِ حسُنَ اختيارُ (الغوايةِ) في الآية؛ لتوضيحِ دَرجة عماية هؤلاء الظّالمينَ وانهماكِهم في الباطل، فليس مجرَّدَ ضلالٍ ولا زيغٍ عن الحقِّ، بل هو عمايةٌ مع القصدِ إلى مُضادَّةِ الحقِّ.

(1) بيات، معجم الفروق، ص: 269.
(2) الراغب، المفردات: (زيغ).
(3) داود، معجم الفروق الدلالية: 328 - 332.
(4) بيات، معجم الفروق، ص: 292.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والأربعون،
سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 48 ، 810 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-07-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 48 : المجلد الثامن والأربعون، سورة يس من الآية 51 إلى سورة الصّافّات الآية 144.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-07-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1101030 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»